كامل الأوصاف

لم يكن عم كامل من المشاهير، فلم تتعدى دائرة معارفه الشارع الذي يقطن فيه والمصلحة الحكومية التي كان يعمل بها قبل إحالته الى المعاش. وما كان عم كامل ليحلم يوماً أن تنشر الجرائد صورته، أو أن يحقق كل هذا الصيت، لولا المأساة الرهيبة التي اقترنت باسمه والتي.. ولكن من الأفضل أن نبدأ القصة من أولها.

منذ أن تسلم كامل أفندي العمل في وظيفته الحكومية البسيطة، وهو حريص على ألا يخطئ في عمله، وألا يعطي الفرصة أبداً لأي من رؤسائه لانتقاده أو مجازاته، الأمر الذي شفع له حين طلب نقله من الصعيد الى القاهرة عقب زواجه بقليل.

وكم كان يطيب لكامل أفندي أن يتفاخر بأنه لم يتلق مجرد لفت نظر رغم أن حياته الوظيفية استمرت أقل قليلاً من أربعين عاماً. كان هذا هو محور حديثه اليومي في جلسته المنزلية عقب العشاء مع زوجته وأبنائه، كمال وعاطف وسميحة، فما كان كامل أفندي ليتردد الى أي من المقاهي المنتشرة في الحي الشعبي الذي سكن من القاهرة.

ولا يذكر أحد ولا كامل أفندي نفسه متى تحول الناس الى مناداته "عم كامل"، هل عندما خط الشيب شعر رأسه، أم عندما أحيل الى المعاش. على أية حال احتل عم كامل مكانة طيبة في قلوب جيرانه، فهو رجل مستقيم مجامل، وإن تغيب أحياناً عن دعاوى الأفراح، إلا أنه لم يتخلف أبداً عن حضور مأتم. لذا عامله الباعة باحترام وأصحاب الدكاكين بتوقير، بينما حرص عم كامل على ابقاء حاجز رفيع بينه وبين معارفه، فما دعا واحداً منهم أبداً الى منزله، مملكته الصغيرة، كما كان يسميها.

أما أسعد لحظات يومه حقاً، فكانت بعد أن ينام أطفاله، حين يطوف على غرفهم حاملاً لمبة الغاز السهاري مؤكداً وضع الأغطية على أبدانهم الرقيقة. كان قلبه وقتها يكاد يفيض حباً، وأنفاسه تتلاحق بالدعاء لكمال وسميحة وعاطف، بأن ينجح مقاصدهم وأن يبعد عنهم "أولاد الحرام".

ومرت السنون سريعاً، وكبر الأبناء، وسافر كمال في بعثة دراسية ثم عاد ليتزوج ويقيم في حي آخر، ورحلت سميحة مع زوجها الى إحدى بلاد الخليج، أما عاطف فبقي مع والديه بعد أن توظف، مؤجلاً فكرة الزواج رغم إلحاح أبيه، وإن كان ألحاحاً فاتراً!. بالطبع لم أعرف كل هذا عنه إلا بعد أن نشر بالصحف عقب المأساة.

واضطرب عم كامل بشدة، فقد افتقد الجلسة العائلية كل مساء، واشتاق الى جولته الليلية على الأطفال في أسرتهم، لكنه تنهد مستسلماً لحكم الزمن، فلم يعد يرى أولاده وأحفاده إلا في مناسبات متباعدة. ليس هذا فقط، بل الحي نفسه قد تغير. أين دكان الحاج مأمون الأستاذ في فن عصير القصب كما كان يدعوه مداعباً. لقد توفي مأمون وسرعان ما هدم دكانه، لتقوم مكانها عمارة شاهقة في أسفلها سوبر ماركت ونادي للفديو. أين الباعة الطيبون الذين ما جادلوه أبداً وهو يقلب العربة لينتقي أفضل ما فيها. لقد اختفوا وحل محلهم باعة متجهمون لا يجسر أحد على مناقشتهم في سعر أو في نوع.

لقد شاخ عم كامل، حتى منزله شاخ، وتشققت جدرانه. وحين لفت مهندس الحي نظره الى ضرورة عمل بعض الترميمات، أسرع عم كامل باستدعاء مهندس متقاعد من معارفه، أكد له أن مباني زمان "زي الحديد"، ثم اتحفه بمحاضرة طويلة عن مهنسي هذه الأيام الذين لا يفقهون شيئاً في الهندسة!

لم يكن عم كامل يظن أنه سيهتز بهذه الصورة عندما توفيت زوجته فجأة بعد ٤٦ سنة من العشرة المتصلة، لقد افتقد صوتها وحركتها في البيت، واشتاق الى ضحكتها وهي تناديه بـ "كامل الأوصاف". لكنه استعاد تماسكه وهو يرى أبناءه محيطين به ومعهم أولادهم، حتى سميحة حضرت بمجرد علمها، وها هي الجلسة المحببة تعود في وقت قاسٍ حقاً، وها هو الحوار يدور ، ولكنه هذه المرة ليس حول ملف عم كامل الوظيفي ناصع البياض، بل حول إصرار كمال وزوجته على انتقال أبيه للإقامة معه ،هو وعاطف، في فيلته الرحيبة، الأمر الذي رفضه عم كامل بشدة. وحاول كمال جاهداً أن يثني أباه دون جدوى. وحسماً للجدل طلبت سميحة تأجيل النقاش الى الغد، بينما استجاب كمال لرجاء أبيه بالمبيت معه في المنزل العتيق، وإن أصر على أن يعود الأطفال للمبيت لدى حماته.

التأم شمل العائلة، وهاهو حديث الذكريات يتجدد. وفي تلك الليلة، وبعد أن نام الأبناء في غرفهم القديمة، قام عم كامل ليخرج من خزانته مصباحاً غازياً عتيقاً، نفض عنه الغبار وأضاءه ليطوف به الطواف الذي افتقده سنيناً طوالاً، ثم يعود الى غرفته ليقضي وقتاً طويلاً حتى تهدأ مشاعره قبل أن يغلبه النوم.

والآن لم يبق إلا أن نتحدث عن المأساة، ولكن ما الداعي الى تكرار الحديث عنها، وقد قرأتموها جميعاً في الصحف!